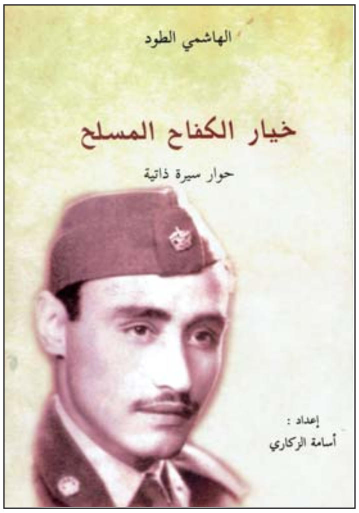

Al-Hāshmī aṭṭūd.- ***Khiyār al-kifāḥ al-musallaḥ. Ḥiwār sīra dhātiyya.*** **’Iʿdād ’usāma az-zakārī, (Ṭanja: Salīkī ’Ikhwān, 2018), 751p.**

الهاشمي الطود.- خيار الكفاح المسلح. حوار سيرة ذاتية، إعداد أسامة الزكاري، (طنجة: سليكي إخوان، 2018)، 751 ص.

يتزايد حضور الذاكرة في مغرب اليوم بشكل لافت للانتباه، ومن أوجه ذلك تواصل نشر كتابات لفاعلين تاريخيين أسهموا في أحداث مرحلتي الاستعمار والاستقلال، ومن بينها مذكرات الهاشمي الطود، أحد قادة جيش تحرير المغرب العربي الذي أشرف عليه محمد بن عبد الكريم الخطابي، بعنوان: **خيار الكفاح المسلح. حوار سيرة ذاتية.** وقد أعدها للنشر الباحث أسامة الزكاري، وصدرت في يناير سنة 2018.

ويندرج الهدف العام من إصدار هذا الكتاب في خانة واجب الذاكرة كما يُفهَم مما سطره الهاشمي الطود عبر صفحاته، حيث جاء في صورة ردِّ الدَّيْن تجاه رفاقه بالأمس من أعضاء جيش التحرير وتعبيرا عن الوفاء لذكرياتهم، وفي مقدمتهم محمد بن عبد الكريم الخطابي الحاضر بقوة على طول مسار الحكي، إلى درجة جعلت الكتاب يتسم بازدواجية في الهوية السردية بين السيرة الذاتية للطود وسيرة الخطابي.

قُسِّم الكتاب إلى قسمين، يمتد الأول على 429 صفحة، اتخذ هيئة الحوار بين السارد ومعدِّ المؤلَّف تخللته صور شخصية وعائلية للطود وأخرى لشخصيات أخرى وجملة من الأحداث السياسية الوطنية المغربية أو المغاربية والعربية. بينما يقع القسم الثاني من الكتاب في 319 صفحة، تضمنت وثائق شخصية وعائلية وسياسية وصحافية، ذات صلة بموضوع هذه المذكرات.

وقد قام مُعِدُّ الكتاب بجهد معتبر على مستوى "تجميع تفاصيل هذه السيرة (...) وإخضاعها للافتحاص وللتصنيف والترتيب الضروري الكفيل بتحويلها إلى مادة مرجعية يمكن أن تصبح موضوعا مركزيا لاشتغال الباحثين والمؤرخين المتخصصين." ومن ميزات الأسلوب الحواري، تكسير رتابة الحكي وإتاحة نوع من التفاعل بين المتحاوِرَيْن يسمح باستحضار أكبر قدر ممكن من الذكريات وشد انتباه القارئ، لكنه في الوقت نفسه قد يتسبب في تعارض الاستراتيجية التذكيرية بين المحاوَر والمحاوِر، وهذا ما حصل في بعض فقرات هذه المذكرات. وعلى سبيل المثال، قاطع الزكاري الطود في الصفحة 99 طالبا منه تأجيل الإدلاء

بموقفه من وثيقة المطالبة بالاستقلال المؤرخة بيوم 11 يناير 1944، وأن يقوم بدلا من ذلك بوصف الكلية العسكرية ببغداد حيث انخرط فيها ضمن بعثة عسكرية أرسلها الخطابي، غير أن العودة إلى موضوع الوثيقة المذكورة لم تحصل بعد ذلك.

وتتجلى أهمية هذا المؤلف في سد جزء هام من الثغرات التاريخية المتعلقة بنشاط الحركة الوطنية المغربية في المشرق العربي عامة، وبتجربة جيش التحرير المغاربي كما قادها محمد بن عبد الكريم الخطابي خاصة. ويقدم الطود رواية من داخل هذه التجربة، إذ كان من أركانها الأساسية، علما أن أغلب من تحدثوا عنها سلفا هم في غالبهم من القيادات الحزبية المغاربية التي لم تكن على وفاق دائم مع مواقف الخطابي، ولم تبد أي استعداد لمشاطرة مشروعه.

ويبدأ الطود مذكراته بالتعريف بحياته الخاصة والعائلية وما لها من أثر في ما أصبح عليه مستقبلا؛ إذ ولد سنة 1930 بمدينة القصر الكبير من عائلة محافظة أسهم كثير من أفرادها بأدوار علمية ودينية وإدارية وقضائية، وانتمى كثير منهم إلى أحد الحزبين الوطنيين؛ وهما الإصلاح الوطني والوحدة القومية. وقد حفظت أمه الزهرة الطود القرآن الكريم، بينما نشط والده عبد السلام الطود، ضمن فرع حزب الإصلاح الوطني بالمدينة المذكورة.

وتلقى الطود تعليمه الابتدائي في المدرسة القرآنية ثم المعهد الديني الكائنان بجانب المسجد الأعظم في القصر الكبير. والتحق سنة 1941 بصفوف التعليم الثانوي في معهد مولاي المهدي بتطوان الخاضع وقتئذ لإدارة محمد المكي الناصري زعيم حزب الوحدة المغربية. وكان هذا الأخير من بين أساتذته مع بعض الرموز الأخرى للحركة الوطنية ومن بينهم أحمد معنينو، إضافة إلى أساتذة مشارقة، فتأثر بالأفكار الوطنية وشارك في مظاهرات نظمها الوطنيون، وكان ممن ارتدوا لباس الفتيان التابع لحزب الإصلاح الوطني.

وكان الطود من بين أبناء المنطقة الشمالية ممن هاجروا إلى المشرق لمواصلة دراساتهم العليا. ولم يشر في روايته إلى وجود أي علاقة للحركة الوطنية في المنطقة الخليفية بهذه الهجرة، رغم أنها بعثت كثيرا من أبنائها إلى المشرق لنفس الهدف. وقد ربط الأمر برغبته الخاصة في التحصيل وبجهود الغالي الطود، مؤسس المدرسة القرآنية المشار إليها سلفا، وبتشجيع خاله عبد السلام الطود المستقر بمصر منذ سنة 1938 ضمن البعثة الحسنية لمتابعة دراساته العليا. وبعد الحصول على موافقة والده، وصل الطود إلى القاهرة في سن السادسة عشرة مشيا على الأقدام رفقة حمادي العزيز مرورا بالأقطار المغاربية حيث التقى فيها بعدة شخصيات بعضها ينتمي للحركات الوطنية، وتعرف خلالها على القضايا الوطنية الخاصة بهذه البلدان. وفي العاصمة المصرية، استأنف دراسته الثانوية، والتحق بعد ذلك بالجامعة لدراسة القانون.

ولم يتبلور الوعي السياسي والوطني والقومي للطود إلا أثناء وجوده في القاهرة وبعد احتكاكه بأعضاء من جماعة الإخوان المسلمين، حيث استفاد من المساعدات التي قدمتها وقتئذ

للطلبة الأجانب، وتابع محاضرات كثيرة لزعمائها وفي مقدمتهم حسن البنا وسيد قطب. هذا ولم يقدم الطود على خيار الانتماء لصفوف هذه الجماعة الإسلامية، غير أنه كما قال، تعاطف مع مرجعيتها السياسية والتأطيرية، وذلك قبل أن يتحول هذا التأثر والتعاطف في اتجاه ثورة الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر.

وشكل نزول الخطابي بمصر سنة 1947 الحدث الأساسي الذي غير مجرى حياة الطود رأسا على عقب، حسب قوله؛ فأثناء ذلك وضعته السلطات المصرية في السجن رفقة المغاربيين ممن لا يتوفرون على وثائق لإثبات الهوية، تحسبا لوقوع ما لا تحمد عقباه تجاه الخطابي. وقد أوحى إليه سعد زغلول وأنور السادات، النزيلين في السجن نفسه، بفكرة خوض إضراب احتجاجي عن الطعام، مع ورفيقه حمادي العزيز، فتم نقلهما على إثره إلى المستشفى حيث تعرفا على ممرضة تعرف مكان إقامة الخطابي، فطلبا منها إيصال رسالة منهما إليه، وإثر ذلك تدخل الخطابي لإطلاق سراحهما فالتقيا به، ومنذ ذلك الحين ارتبط به وانخرط في مشروعه الهادف إلى تحقيق التحرير الشامل لكافة البلدان المغاربية.

وفي السنة نفسها، صدر قرار تقسيم فلسطين، وتم الإعلان عن قيام دولة إسرائيل في السنة اللاحقة، فقرر الانضمام إلى فرق المجاهدين التي خاضت حرب سنة 1948 لتحرير فلسطين، استجابة في ذلك لدعوة تقدم بها الخطابي وأمين الحسيني ورياض الصلح وشخصيات عربية وإسلامية أخرى. ويحكي الطود بمرارة عن الهزيمة العربية في هذه الحرب التي أصيب أثناء معاركها برصاصتين في ساقه وبطنه نقل على إثرها إلى مستشفى العريش لتلقي العلاج. وقد علل سبب الهزيمة بخذلان العالم وخيانة بعض الزعماء العرب وعدم توفر القوات العربية والمتطوعين على العتاد اللازم غير الأسلحة الخفيفة، في حين تعززت إمكانات القوات الإسرائيلية بعتاد عسكري متطور.

ويؤكد الطود على إيمان الخطابي العميق بأن المعركة ضد المستعمر لا يمكن إلا أن تكون مغاربية بحكم أن المنطقة تمثل كتلة واحدة متجانسة بشريا وطبيعيا وجغرافيا وتاريخيا. وانخرط الطود في مشروع الخطابي القاضي بإنشاء جيش تحرير مغاربي موحد باعتباره الوسيلة الوحيدة الكفيلة بتحقيق استقلال البلدان المغاربية من نير الاستعمار. وفي هذا الإطار، وبأوامر من الخطابي إثر اقتناعه بضرورة الانتقال من التخطيط في القاهرة إلى العمل الميداني في المنطقة المغاربية، توجه الطود سنة 1951 نحو الإسكندرية. وكانت هذه المدينة قد نقلت إليها مصالح الجامعة العربية، لإجراء اتصالات مع القيادات الوطنية المغاربية سواء المستقرة منها بمصر أو التي تزور الجامعة العربية، فكان من بينها علال الفاسي ومحمد حسن الوزاني من المغرب، ومصالي الحاج والحسين آيت أحمد من الجزائر...، وذلك بغية استطلاع رؤاها بخصوص سبل التحرير والانتقال إلى مرحلة العمل المغاربي المسلح ببعده الشمولي. واستحسنت هذه

الشخصيات المشروع، لكن عند محاولة تنزيله على أرضية الواقع اتضح، حسب صاحب المذكرات، أن بعضها لم يكن صادقا في مواقفه. وفضلا عن ذلك، قام الطود خلال سنتي 1951 و1952 بزيارات للبلدان المغاربية انطلاقا من ليبيا، لتثبيت الأقدام فيها وتيسير أمر الحصول على الأسلحة والذخيرة، خاصة وأن هذا البلد قد حصل على استقلاله، مرورا عبر تونس والجزائر ثم وصولا إلى المغرب، وذلك في محاولة لإقناع القيادات والأحزاب الوطنية بالبلدان الثلاثة بأهمية الانخراط في مشروع الخطابي. وقد سمحت له هذه الاتصالات والزيارات بجمع معلومات كثيرة ومهمة عن المستعمر والحركات الوطنية والأوضاع العامة ومدى قابليتها لانطلاق العمل المغاربي المسلح. غير أن حصيلة هذه الاتصالات كانت عموما مخيبة للآمال، وخلص في إثرها إلى عدم جدوى المراهنة عليها في هذا العمل.

وفي أرض المغرب، مثلا، التقى الطود بقيادة حزب الاستقلال، وعلى رأسها أحمد بلافريج والفقيه غازي، وكان ردهما خلال الاجتماع عنيفا ورافضا للمشروع ومنددا به ومشككا فيه، على حد قوله. أما بالنسبة لحزب الشورى والاستقلال، فعلى الرغم من المواقف الإيجابية للبعض من قادته، وخاصة أحمد معنينو، فإن قيادته المركزية رفضت بدورها المشروع. والتقى الطود رفقة أحمد معنينو مع عبد الهادي بوطالب لاستطلاع رأي القصر السلطاني في الموضوع، لكن بوطالب لم يحمل منه رسالة دقيقة في مضمونها بهذا الخصوص، واكتفى بأن أبلغهما (الطود ومرافقه في رحلته)، معبرا عن رأي القصر، بأن وجودهما في المغرب فيه خطر على حياتهما.

وتوجه الطود ورفيقه، مباشرة بعد ذلك، نحو المنطقة الخليفية للتعرف على موقف الوطنيين في الشمال الخاضع للاحتلال الإسباني، فكانت ردود الفعل إيجابية ومساندة للمشروع، حيث عبر هؤلاء عن استعدادهم لتوفير ظروف العمل بالمنطقة الخليفية لتصبح مجالا خلفيا لتحريك آليات العمل المغاربي المسلح. أما بالنسبة لعلال الفاسي المقيم وقتئذ بالقاهرة، فقد انسحب غاضبا من لقاءٍ حضره بمنزل الخطابي في المدينة نفسها، فكان من جملة من حضره عزام باشا أمين عام الجامعة العربية وشخصيات مغاربية، وذلك إثر قراءة الطود لتقرير مفصل عن نتائج جولته المغاربية وجه فيه انتقادات لمواقف قيادات حزب الاستقلال. وقد حمل موقفه هذا، في نهاية المطاف، حسب الطود، "كل مظاهر القطيعة بين الأحزاب السياسية المغاربية وبين مشروع الثورة المغاربية المسلحة كما كان يراه الخطابي."

وبعد فشل هذه المساعي، وفي سياق نجاح ثورة الضباط الأحرار في مصر بقيادة جمال عبد الناصر، انتقل الخطابي نحو التأسيس العملي لمشروعه، فترأس مؤتمر ضباط المغرب العربي يوم 21-12-1952. واعتبر هذا المؤتمر بأن العمل السياسي قد فشل في تحرير بلدان المغارب، وخلص إلى أن السياسيين عموما لم يتحلوا بالصدق تجاه لقضية المغاربية، وانتهى إلى التأكيد

بأن البديل هو تنظيم حركة مقاومة مسلحة سرية وموحدة في كل أقطار المغرب العربي لتحريره و"تمكين شعبه من تنظيم شؤونه والقيام بنهضته على أسس إسلامية صحيحة." وقد شكل المؤتمر لحظة فعلية للإعلان عن ميلاد "جيش تحرير المغرب العربي،" ووضع هياكله؛ ومن أهمها القيادة العليا، وأركان حرب القيادة العليا، وشعبة التدريب والتحركات، والقيادة العامة، وقيادات المناطق...

وفي السنة نفسها، أُلحق الهاشمي الطود ورفيقه حمادي العزيز بالجيش المصري بمرتبة ضابط منتدب لدى لجنة تحرير المغرب العربي، فصار مسؤولا عن تدريب أطر جيش التحرير المغاربي. وخلافا لكثير من قيادات المقاومة المسلحة والزعماء السياسيين بالمغرب، اعتبر الطود أن الدعم المصري للمقاومة المغربية، وبشكل خاص بعد ثورة الضباط الأحرار، كان مبدئيا ومطلقا دون أية وصاية، ومنسجما مع القناعات القومية العروبية التحررية لهذه الثورة.

وأثار نفي فرنسا للسلطان محمد بن يوسف سنة 1953 غضب الخطابي. وقد وصف الطود عمليات المقاومة المسلحة التي انطلقت عقب هذا النفي بالحركة المحدودة التأثير والفردية، إذ كان من المتعين استثمار تراكماتها لبلورة تصور عن حرب تحرير شاملة ضد الاحتلالين الفرنسي والإسباني. وبعد حديثه عن رفض كثير من القيادات السياسية ذات النفوذ والقوية التأثير في صفوف حزبي الاستقلال والشورى والاستقلال للمقاومة المسلحة، وجه انتقادات حادة للمسار التفاوضي مع فرنسا الذي اعتبرته هذه القيادات حلا وحيدا للقضية الوطنية، وخاصة مفاوضات "إيكس ليبان،" ثم أشار إلى رفض الخطابي لهذا المسار. وقد نفى الطود من جانب آخر، نفيا قاطعا، حقيقة وجود جيش تحرير مغربي، بحكم أنه لم يطلق ولو رصاصة واحدة وأنه قد تأسس تحت إشراف السلطات الإسبانية، معتبرا أن الإعلان عنه كان بهدف عرقلة عمل جيش تحرير المغرب العربي الفعلي الذي كان يعده الخطابي.

وفي تقييمه للعمل الميداني المسلح بالمغرب العربي، أكد بأنه قد واجهته عدة عراقيل من بينها التعارض بين المسار المغاربي الشامل الذي كان يخطط له الخطابي والمسارات الوطنية القطرية للمقاومة بالبلدان المغاربية، كما أن إعلان استقلال المغرب وانطلاق حركة التصفيات، كما يسميها، لأطر هذا الجيش التي التحقت بالداخل المغربي أدت إلى فشل نقل الحركة داخل المغرب. وإثر إجهاض حلم الثورة التحريرية المغربية، ركز الطود جهوده على دعم الثورة الجزائرية والقيام ببعض المهام داخل جبهة التحرير الجزائرية.

ولم يقتصر الطود في مذكراته على تغطية فترة الحماية، بل تناول أيضا مواضيع تتعلق بعهد الاستقلال وخاصة سنواته الأولى، ومن بينها التصفيات والاختطافات السياسية، والمؤسسة العسكرية المغربية الناشئة، والهجرة اليهودية نحو إسرائيل.

وأشار الطود إلى مسؤولية حزب الاستقلال وميليشياته المسلحة عن الاختطافات والتصفيات التي استهدفت الكثير من المقاومين والسياسيين خلال هذه المرحلة، ومن بينها اختطاف والده سنة 1956 مما حمله على العودة للاستقرار ببلده المغرب سنة 1960، محملا المسؤولية الأولى في ذلك للمهدي بنبركة باعتباره الماسك الرئيسي وقتئذ بجميع الخيوط التنظيمية لهذا الحزب، في وقت كان فيه علال الفاسي بعيدا عن المسؤوليات المباشرة فيه.

وقد تم تعيين الطود قاضيا للتحقيق بالمحكمة العسكرية سنة 1961 من قبل المحجوبي أحرضان، وزير الدفاع وقتئذ، بعد تفعيل قرار الملك محمد الخامس القاضي بإدماج الأطر العسكرية المغربية النشيطة سابقا بالمشرق في صفوف الجيش الملكي الفتي. وقد جر عليه هذا المنصب متاعب شتى ومضايقات علل أسبابها العميقة بعلاقاته القوية مع الخطابي. ومن بينها إشرافه في السنة اللاحقة على القضية المتعلقة بملف محاكمة 22 يهوديا اعتقلوا بتهمة التهجير القسري لمغاربة يهود نحو إسرائيل، والتورط في تهريب الأموال في إطار المشروع الصهيوني. وأصبحت هذه القضية مدعاة لعزل الطود من منصبه بعد إصراره على وضع ملف القضية لدى هذه المحكمة، ورفضه الضغوط التي مارستها عليه شخصيات نافذة في الدولة لتغيير مسار القضية ووقف التحقيق فيها. وصدرت تعليمات فوقية، على حد تعبيره، نصت على التعليق النهائي للملف دون البت فيه...

ويتضمن الكتاب بين دفتيه معلومات كثيرة وفي غاية الأهمية، وخاصة ما يتعلق منها بتجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي في مصر ومشروعه القاضي بإنشاء جيش تحرير مغاربي، وبمجريات الحياة السياسية المغربية بعد الاستقلال. غير أن صاحبه يقدم روايته الخاصة عن أحداث وقعت في مجال جغرافي واسع وفي حيز زمني يمتد لسنوات عدة ولها علاقة مباشرة بكثير من الفاعلين السياسيين الوطنيين والمقاومين، ليس في المغرب فحسب، بل في بقية البلدان المغاربية. وبناء عليه، فإن مذكراته تنحو في مجموعها إلى تقديم وجهات نظر معينة من زاوية خاصة، ولا يمكن معها لصورة الأحداث التي ترويها أن تكتمل إلا بالاطلاع على وجهات النظر المكملة أو المعارضة من زوايا أخرى لجميع هؤلاء الفاعلين، من خلال ما خلفوه من كتابات ووثائق وشهادات ومذكرات، مع ضرورة الحرص على المقابلة بين محتوياتها.

عبد العزيز الطاهري
جامعة محمد الخامس بالرباط